

كلمة تقال ... !!

أخي الأستاذ على الطنطاوى

سلام عليك . يقال فى المثل : « كُزِّهَآ تَزَكَّبُ الْإِبِلُ السَّفَرُ » وقد استطعت أنت أن تُكْرِهَ القلم إلى ما أردت أن أنزهه عنه . فلولا ما أضمرتُ من قديم المودة لك ، ولولا ما عرفت من صدقك ، ولولا أننى أجلك عن أن تكون عجولا إلى غير صواب ، ولولا أنى أكره أن تأخذ عنى شيئا لم أقله بلسانى ، لولا ذلك كله ، لكان أبغض شىء إلى أن أستكره نفسى على غير ما رأيتُ أنه أجمل بى وأصون . وإنك لتعلم ، أيها الصديق القديم ، أنى أكره أن أزداد من الشر ، أو أن أتزود من لاجاة الباطل . والكتابة فى زماننا هذا شر مستحكم ، وباطل لجوج متوقح . وقد اقتحم وُعْزها من لا يحسن المشى فى سهولها ، وتشهَّها من لو أنصف نفسه لحال بينها وبين ما تشتهى ، واتخذها صناعة من لو عقل لأعفى نفسه من مزاولتها . ولكن هكذا كان ، ورحم الله الطائى إذ يقول لمحمد بن عبد الملك الزيات :

أبا جعفر ، إن الجهالة أُمُّها

وَلوْذٌ ، وأُمُّ العلم جَدَاءٌ حائلٌ (١)

أرى الحَشُوَ (٢) والدهماء أضحوا كأنهم

شعوب تلاقى دوننا وقبائلُ

عَدَوًا ، وكأن الجهل يجمعهم به

أبٌ ، وذوو الآداب فيهم نَوَاقِلُ (٣)

وأنت تعلم أن من أنصب النَّصَبَ ، أن تتصدى لإفهام من لا يفهم عنك ،

• الرسالة ، السنة العشرون (العدد ٩٧٩) ، إبريل ١٩٥٢ ، ص : ٣٨٣ - ٣٨٤

(١) الجداء : التى جف لبنها ، لكبير سننها . والحائل : التى لا تحمل .

(٢) الحشو : من لا خير فيه ، ولا عنده عقل يميّز به شيئا عن شىء .

(٣) نواقل : جمع ناقلة ، وهى شبه الزيادة يلحق بالصميم ولا يحتاج إليه .

فإذا بلغ الأمر أن تراه ينتصب لجدالك ، فاذا كر قول من قال : إذا أردت أن تفحم عالما فأخضِزه جاهلا . وقد لقيت أنا من شر ذلك ما لقيت ، فأثرت أن أسلك سبيلي لا يشغلني عنه متعلق بأذيالي ، إرادة أن يصرفني عن الوجه الذي أردت .

ولقد قرأت كلمتك في الرسالة ، فأسفت أشد الأسف ، لأنني عرفت منها أنك لم تقرأ ما كتبه في مجلة « المسلمون » وفي أربعة أعداد منها . ولو كنت قرأتها لما كتبت ما كتبت ، لأنني لا أشك في ذكائك وحسن فهمك ، فأنا لم أتعرض في شيء منها لبني أمية أو بني العباس ، ولا لحكمهم ، ولا لسياستهم ؛ فعجبت أشد العجب كيف يمكن أن تكون معي أو على في أمر لم أقل فيه كلمة ، ولا يعلم أحد ممن كتب رأيي فيه ، ولا كيف أقول إذا أنا تعرضت للبيان عنه ؟ فمن أجل ذلك عجبت ، لأنك لم تنصف على عادتك من الإنصاف .

وأنا محدثك باختصار عن هذا الذي كتبه . أصل ذلك كله أني رأيت من كتب من المُحدثين في شأن تاريخ الماضين من أسلافنا ، يكتب أو يتحدث بأسلوب أقل ما يقال فيه أنه مشوب بالحماسة الشديدة ، مختلط بالجهالة المتركة ، في معرفة أصول التاريخ ، مغموس في حمأة من الافتراء والتطاول ، مستنقع في أهواء سيئة رديئة . وزعمت أن للناس أدبا وأسلوبا في كتابة التاريخ ، وأن للمسلمين خاصة أدبا وأسلوبا في التاريخ ينبع من أصل دينهم ، في العدل ، وفي حسن النظر ، وفي الأناة في طلب الحق ، وفي كف اللسان عن التهجم بالقول السيء على عباد الله بلا بينة ، وفي التناهي عن اقتفاء المرء ما ليس له به علم ، وفي التثبت من الأخبار قبل تصديقها . وهو أدب كما تعلم كان قديما في كتبنا ، ولكن حضارة هذا القرن قد نشرت وباء شديد الفتك ، ذهب بأكثر هذا الأدب ، وأخذت في طريقي أضرب المثل على هذا بكتابت رأيته لم يتورع عن سلب الناس دينهم ، ولم يخش الله في نفى الإسلام عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، وفي تصوير أعمالهم بصورة أعمال المنافقين ، وفي أخذ الروايات الباطلة وجعلها دليلا على الغمزة في إيمانهم ، وفي رد الروايات الثابتة الصادقة بروايات كاذبة ادعاها مدع من الرافضة ، إلى غير ذلك مما سأبينه فيما أكتب في مجلة

«المسلمون» وزعمت أن هذا ليس ديدن هذا الكاتب وحده ، بل صار ديدنا لأكثر من يكتب الآن في شيء من تاريخ هذه الأمة المسلمة ، حتى صار الطعن في صحابة رسول الله أمراً مرتكباً بلا حذر .

وما دمت لم أزد في كلامي على هذا ، فلست أدرى بعد ما الذى يحملك على أن تخذلنى أو تنصرنى فى أمر لم أنطق بعد فيه بكلمة ! نعم ! قد يكون رأى فيما أبديت أنت فيه رأىك ، مخالفاً لك ، ولكنى لم أتكلم بعد فتعرف حجتي فيه . بل لعلى إذا كنت لك مخالفاً ، ثم عرضت عليك خلافى لك ، أن تكون أسرع إلى موافقتى منك إلى الخلاف علفى ، حين ترى فيما أقول صواباً يرضيك . أليس هذا جائزاً ، وممكننا أيضاً ؟ فإذا رأيتنى بلغت فى سياق مقالاتى فى «المسلمون» إلى ذكر دول الإسلام ، فعندئذ فقل ، فأنا أقبل منك ما تقول . واعلم أنى لا أنف أن أصير إلى الحق إذا عرفته . ولقد عشت على هذه الأرض زماناً طويلاً ، واعتقدت منذ عقلت آراء كثيرة ، ثم تبين لى أن الحق فى خلافها ، فرجعت عنها جملة ، ولم أبال بما كنت أرى . ولعلك أنت خاصة تعلم من ذلك ما لا يعلمه غيرك .

وأنا أحب أن ترجع إلى ما كتبتة فى مجلة «المسلمون» ولا تأخذ كلام أهل اللجاجة ، فإنهم أوهموك ، فيما أظن ، أنى قلت شيئاً ، والحقيقة أنى لم أقل بعد فيما تناولته أنت شيئاً ، وأنا أعيدك أن تتورط ، فى هذا الشر الذى نجاهد جميعاً فى دفع الناس عنه ، وهو أخذ الأقوال بلا بينة ، وبلا حجة ، وبلا برهان . ولك منى تحية كنت أحب أن تبلغك ، على غير هذه الراحلة المكروهة على ارتكاب طريق دنسته الأقدام ، والسلام .